النظر الحرام وخسارة الإيمان

بقلم

الدكتور / طلال الحسان

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ / ٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نبينا محمد، وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، أما بعد:

في صحيح البخاري: (أن أُم جُريجٍ العابد دعت على ابنها جُريج لما تشاغلَ عنها بصلاتهِ بهذا الدُعاء الغريب، قالت وسألت الله: ألا يُميتهُ حتى ينظرَ في وجوه المومسات)، أي الزانيات.

ولسائلٍ أن يسأل: لماذا اختارت أُمُ جُريج هذه الدعوة؟

ولعلَ جوابَ ذلك والعلمُ عند الله أنها لما علمت أنه لم يُجبها لالتذاذهِ بصلاتهِ، وأن مما يُذهبُ الخشوعَ ويُفقدُ لذة العبادة إطلاق البصر، دعت عليه بتلك الدعوة.

نعم، فالنظرُ إلى الحرام يُذهبُ لذة المُناجاة، ويطمسُ البصيرة، ويُزيلُ الحياء، ويُطفئ نور التقوى في القلب، ويخسفُ

بديانة العبد إلى هوةٍ سحيقة، إن مُجردَ أن يُخلى بين العبدِ وبين النظرِ إلى تلك الوجوه، وتلك الصور الآثمة والأجساد العارية، عقوبةٌ من الله، فلا تغفل يا أُخي عن هذا المعنى، فغض البصرِ جنّةٌ غادرها الكثير استجابةً لنزواتهم العابرة، فما حصدوا إلى الحسرات المتتابعة والآلام.

أخي الغالي: واللهِ إني أُحبُك، إيمانُكَ عزيز بل هو أعزُ ما تملك، ولذا يجبُ عليكَ أن تتعاملَ معهُ بعنايةٍ كبيرة، وإلا ذهبَ وتلاشى، فما أعظمَ خسارة من ضيعَ النورَ والصفاءَ الذي اقتبسهُ من هداءات الأسحار، وتراتيل الوحي، وظمأ الهواجر بنزوةٍ عابرة أو نظرةٍ مُحرمة، كيفَ وقد قال اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة النور: آية ٣٠]، ذلك أزكى لهم؛ فتزكيةُ النفسِ من أبعدِ ما تكونُ عمن أطلقَ بصرهُ في الحرام، وأعلم: أنه لن تتزكى نفسُ الشخصِ وهو لم يُحكم إغلاقَ بابِ النظرِ المحرم، وكُلُّ زمن الجهادِ في الغضِ لحظة، كُلُّ زمن الجهادِ في الغضِ لحظة.

فميزانُ هداية القلبِ خلواته، فأنتَ حينَ تغضُ بصرك تشتري صفاءَ روحك وتُحافظُ على النور الذي أسكنهُ اللهُ قلبك، وتُغلقُ أعظمَ أبواب الشيطانِ عليك، وأشهدها فتكًا بإيمانك؛ لأن آثار النظر المُحرمِ عظيمة وخطيرة.

وهذا الموضوع، موضوع إطلاق البصرِ والنظر الحرام، يُشكلُ خطراً كارثيًا على تديُنِ واستقامةِ كثيرٍ من أهلِ الخيرِ والصلاح، والحلُ لا يكونُ إلا في الاستنفار، وليسَ فيه تدرج، فليسَ على العبدِ شيءٌ أضرُ من إطلاقِ البصر فإنهُ يُفرقُ القلبَ ويُشتته ويوقعُ الوحشةَ بين العبدِ وربه، كما قال ابن القيم.

ومن أطلقَ لحظاتهِ دامت حسراته، وما أصدقُ قولَ الشاعر:

تجني على هذا الفؤادِ إذا ما
كم تُطفئُ النظراتُ نورَ هدايةٍ
أبصرتَ يومًا في الحياةِ حرامَ
ونظلُ نشكو بعدها الآلامَ

فهـذه الصـورة المحرمـة، وهـذه المقاطـعُ الآثمـة تجعلُكَ تنفصلُ عن جميعِ معاني الحياة، وتكونُ أسيراً لها، تُصبحُ وتُمسي وتفكيـرُكَ منحصـرٌ فيها، وتُصبـحُ مُكبلاً عن الخيـر، تعيشُ على هذه الشهوات المحرمة، وهذا واللهِ هو الخُسرانُ والغبن، فالعمرُ أثمنُ من هذا.

۞ ومما يُعينُ على غض البصرِ أمران:

الأول: وهـو أهمُ شـيء، الدُعـاءُ والتضرعُ بين يـدي الله بأن يحفـظَ اللهُ بصـركَ عـن الحـرام، وأن يُعينكَ على غـض البصر، وليكـن ذلـكَ ورداً ثابتـًا لك في هذا الزمن، زمن انتشـارِ المقاطع وسـهولة الوصول إليها، خاصةً في هـذا الزمن -كما قلت-: التي عمت فيه الصور والمقاطع وطمت:

* قُل: اللهمَ أعني على غض بصري عن الحرام.
* قُل: اللهمَ اصرف عني السوء والفحشاء واجعلني من عبادكَ المُخلصين.

اسـأل اللهَ دائمـًا، ادعو الله أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُعينك على غض البصـر، واللهِ هذا ليس كثيراً أن تُخصص دعوة وتسـأَلُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أن يُعينـكَ على غـض بصرك، وأن يحفظَ لكَ هـذا البصر في هذا الزمن الذي عمت فيه الصور، وسهُلَ الوصول إليها.

وهـذا هـو من الاعتصام بـالله، يقـول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [سـورة آل عمران: آية ١٠١]، فهدايتُكَ بقـدرِ اعتصامِكَ بربـك، هذا هو الأمرُ الأول، وهـو أولى عتبات الخـلاص من هذا المسـتنقع: الإكثـارُ من الدُعـاءِ والتضرعِ بين يـدي الله جَلَّ وَعَلَا، أكثر مـن سـؤال اللهِ جَلَّ وَعَلَا أن يُعينك على غض بصـرك، وأن يصرفَ عنكَ السـوءَ والفحشـاء، وأن يهديك، وأن يُلهمكَ رُشدك.

هذا هو الأمر الأول.

ممـا يُعين أيضـًا: النظرُ في العاقبة، النظر في عواقبِ هذا الأمر.

اجلـس مع نفسـك وتأمـل ما عواقب هـذا النظر، فـإن من أعظمِ خواص العقل: النظر في العواقب، فلو كُشفت حُجب الغيب وعلمَ الذين أطلقـوا أبصارهم في الحرام ما مقـدارُ الخيراتِ والبركاتِ

والأنوار التي ذهبت عنهم بهذه النزوات العابرة، وما حجمُ الخسائر التي جلبوها على أنفسهم، لتقطعوا واللهِ من الحسرةِ والغَبن، نعم: فالصفاءُ والنقاءُ والحياةُ العفيفة تحتاجُ صرامةً أمامَ سيل الشهوات الجارف، وإن إدراك العواقب والمآلات السيئة لهذه الشهوات، مما يُعينُ على الصبرِ أمامها، وكُلُّ زمن الجهادِ في الغضِ لحظة كما قال ابن الجوزي.

فالنظر في العواقب، في عواقبِ هذا الفعل، أين اللذة؟ ذهبت، وبقيت والله الحسرة، وبقيت العقوبة، وبقيت الآلام، وبقيَّ آلام كبيرة بسبب هذا الفعل، فاللذة ذهبت وتلاشت، الذين شاهدوا كثير من المقاطع، أين لذاتُها اليوم؟ ذهبت تلك اللذات وبقيت والله الحسرات، وبقيت العقوبات.

فالنظر في عاقبة هذا الأمر وخطورته، ولكن الشيطان يُغلق هذا الباب على الإنسان، ويسدُ بصيرته، ولهذا من البصيرة أن تتفكرَ لو رأيت هذا المقطع أو شاهدت هذه الصورة الآثمة، طيب، لذتها ستتلاشى، أما عقوبتُها، كم ستغلق على نفسك من باب الخير، وكم ستحرم نفسك من القُرب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بسببِ

هذه المقاطع وهذا النظر المُحرم، فالنظرُ في العواقب، في عواقبِ هذا الفعل من أعظمِ الأمور المُعينة على التخلصِ منه.

كذلك مُجاهـدة النفس وتعويده على غض البصر، اللهُ جَلَّوَعَلَا يقـول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [سورة العنكبوت: آية ٦٩].

ويقـولُ النبـيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ومن يستعفف يُعفـهُ الله، ومن يتصبر يُصبرهُ الله**».

فمُجاهـدة النفـس وتعويدُهـا على غـض البصر مـن الأمورِ المُعينـة، فالإنسـان قد يُبتلى بشـيء أو يجد أن نفسـهُ تجمح إلى مثل هذه الأمور، لكن يُحاول أن يُجاهدَ نفسـهُ، «**ومن يستعفف يُعفـهُ الله**» كما قال النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، هذا الأمر الثالث: مُجاهدة النفس وعدم الاسترسال معها، وتعويدها على غض البصر.

كذلك مـن الملاحظة المهمـة والأمور المعينـة: الإكثار من النوافـل، من صيـامٍ وصدقةٍ أو صلاة أو غيرِها؛ فـإن الإكثارَ منها مـع المُحافظةِ على الفرائض سـببٌ لمحبـة اللهِ للعبد، فإذا أحبَ

اللهُ العبـد حفظَ جوارحهُ عن الحرام، اللهُ جَلَّوَعَلَا يقول في الحديث القُدسـي: «**لا يـزالُ عبدي يتقربُ إلـي بالنوافل حتـى أُحبه، فإذا أحببتهُ كُنتُ سمعهُ الذي يسمعُ بهِ، وبصرهُ الذي يُبصرُ بهِ**».

فهذا الإكثار مـن النوافل أيضـًا مُعين، مُعيـن جداً على حفظ الجوارح عن الحرام، فليُكثر الإنسـان ما استطاعَ من النوافل: من صلاةٍ أو صدقةٍ أو صيام أو قيام ليل، إلى غير ذلك.

كذلـك حفـظُ الخواطـر، الخواطر هـي بذور الشـيطان التي يبذرُها في القلب ثم يجني ثمارها، فمنشأ هذا الأمر خاطرة قطعـًا، خاطرة يسترسل معها الإنسان ثم تتحول هذه الخاطرة إلى إرادة، ثم إلى عزيمة، ثم إلى فعل، ثم إلى عادة، -نسأل الله العافية-.

فأولُ شـيء هو حفظُ الخواطر وعدم الاسترسـال معها، فإذا أتى هذا الخاطر مُباشـرة يسـتعيذ الإنسان من الشـيطان الرجيم، ويعتصـم بالله جَلَّوَعَلَا، ويُصلي ركعتين أو يُكثر من ذكر اللهِ جَلَّوَعَلَا، ويُكثر من دُعاء الله سبحانه وتعالى، إلى غيرِ ذلك، فحفظ الخواطر لأن هذا الأمر منشـأهُ خاطرة، خاطرة استرسلَ معها العبد ثم وقعَ فيما وقعَ فيه.

كذلك من الأمور المهمة:

* **تذكر أن قدركَ عند اللهِ؛** قدرُ اللهِ عندك. فهل هذا هو قدرُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا عندك؟
* **فإذا خلوتَ وأحكمتَ إغلاق الأبواب؛ تفكر:** أهذا هو قدرُ اللهِ عندك؟
* **لا تُبالي بنظرهِ سُبحانهُ إليك،** ولا باطلاعهِ ولا علمهِ بك؟
* **أنـا أجزم لو كان هناكَ طفل صغيـر في الغُرفة،** لما اجترأت على ذلك، فما بالُكَ بربِ العالمين جَلَّ وَعَلَا؟!!

لا تجعل الله أهونَ الناظرينَ إليك.

ومن العواقب الحميدة لغض البصر:

نـورُ البصيرة، فمن غض بصرهُ عن الحـرام، نورَ اللهُ بصيرتهُ، ورزقهُ اللهُ العلمَ والفهم.

يقـولُ ابنُ تيمية: غـضُ البصرِ من أسـبابِ رزق العلم النافع، وشـهواتُ الدنيا واللهِ كلها لا تُساوي شيئًا أمامَ فهم آيةٍ من كتاب الله، أو استنباطٍ لطيفٍ من أحاديث نبيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقولُ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: واللهُ تعالى يجزي العبد على عملهِ بما هو من جنسِ عمله، فغضُ بصرهِ عما حُرمَ يعوضهُ اللهُ عليه من جنسهِ بما هو خيرٌ منه، فيُطلقُ نورَ بصيرته ويفتحُ عليه بابَ العملِ والمعرفةِ والكشوف، ونحو ذلكَ مما يُنالُ ببصيرة القلب.

نعم، اطلاقُ البصرِ في المحرمات كشجرةِ آدم، إن أكلتَ منها استجابةً لنزواتك، فستخسفُ عما قليلٍ على نفسكَ أوراقَ الحسرةِ والخيبةِ وألم البُعدِ عن اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

۞ وهنا ملحظ أُحبُ أن أُنبهَ عليه :

تستطيع يعني أن تجعل من هذا الأمر نقلةً نوعيةً في باب الإيمانِ والهداية، كيف؟

فهم أن هذا تحدي وابتلاءٌ لك واختبار، يعني هذا الأمر مثلًا: غض البصر، أو المُجاهدة، افهم أن هذا هو تحدي وابتلاءٌ لك واختبار، وأن عاقبتهُ حميدة إذا نجحتَ فيها، واللهِ إن استطعتَ أن تُحافظَ على عِفتِكَ وتغضَ بصركَ في هذا الزمن الذي انتشرت فيهِ المحرمات وعظمت فيه التحديات، فأنتَ بذلكَ تستجلبُ ولايةَ

اللهِ جَلَّوَعَلَا ومحبتهُ وتطرقُ باب الهدايةِ من أوسعِ أبوابه على صبركَ على هذه المحرمات، هذه الأمور مُتاحة ومُيسر الوصول إليها.

ففي هذا الزمن إذا عفَ الإنسان نفسهُ وحفظَ بصره، مع ما الشدة التي يُعانيها، فهذا سبب من أسباب محبة اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحجرات: آية ٣]، فقد يغلبُكَ صاحبُ قيام الليل في قيامه، والمُنفقُ في إنفاقه، والمتصدقُ في صدقاته، والصائمُ في صيامه، ويصلونَ إلى اللهِ من هذا الباب، لكنكَ قد تصلُ إلى اللهِ جَلَّوَعَلَا من بابِ الصبرِ على الشهواتِ والفتنِ وغض البصرِ عن المحرمات؛ فهذا بابٌ عظيم.

يعني لا تغفل عن هذا المعنى، يعني تستطيع أن تستجلب ولاية اللهِ جَلَّوَعَلَا ومحبتهُ لك وأن تطرقَ باب الهداية من أوسعِ أبوابهِ بصبركَ على المحرمات، مع قُدرتكَ عليها، لكن تركتها لأجل اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحجرات: آية ٣].

هـذه فُرصـة لتُثبـتَ أنكَ تُحـبُ الله وتؤثـرهُ على غيـره، هذه فرصةٌ لقفزةٍ إيمانيةٍ قد تُصيبُكَ سعادتُها للأبد، هذه فُرصة لتكسرَ نفسك وتُرغمُ الشـيطان، وكما تعلمون: أن هناكَ عبودية اسمُها: عبودية المُراغمة، مُراغمة الشيطان، اعتبر هذا، يعني غض البصر مـن أعمالك الصالحة التي ترجـو ذُخرها وأجرها عند الله، أنه في هـذا الزمن الـذي عمت فيه الفتن، وسـهلَ الوصـولُ إلى الصورِ والمقاطع المحرمة، أنكَ تعففت، واللهِ إنها عظيمة عند الله.

تخيل عندما تقف يوم القيامة بين يدي الله، ويكونُ في صحيفتكَ أنكَ عِشـتَ في زمن الشـهواتِ والفِتن، ولم يكن بينكَ وبينها إلا ضغطـةِ زِر، أنكَ تعففت وحفظتَ بصرك، وعِشـتَ حياةً عفيفة، ولـم تقع عينُـكَ على صورةٍ مُحرمـة، أو مقطعٍ آثـم، نعم: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة فصلت: آية ٣٥]، حتى لو وقعَ لك شـيء من ذلكَ في سالف الأيام، باب التوبة مفتـوح، نبدأ مـن الآن التوبة، وفتحُ صحفةٍ جديـدة: والتائبُ من الذنب كمن لا ذنبَ له.

فيامن ابتلى، أو قد اُتُليَّ بشيءٍ من ذلك في سالف الأيام، أُبشُرُك أن اللهَ جَلَّوَعَلَا ما أيقظَ هذا الشعورَ في قلبكَ، شعورَ التوبة إلا ليُنقذك ويصطفيك، تأمل قول اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الزمر: آية ٥٣]، من الآن أقبل على ربك، وأرغم شيطانك.

يقولُ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إن اللهَ يبسطُ يدهُ بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهار، ويبسطُ يدهُ بالنهارِ ليتوبَ مُسيءُ الليل»، ربُكَ يُحبُ التوبةَ والتوابين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [سورة البقرة: آية ٢٢٢].

وتأمل معي هذا النص لابن القيم، يقولُ رَحِمَهُٱللَّهُ: ولو لم تكن التوبةُ أحبَ الأشياء إليه، لما ابتُليَّ بالذنبِ أكرمُ الخلقِ عليه، فلمحبتهِ بتوبةِ عبده، ابتلاهُ بالذنب الذي يوجبُ وقوعَ محبوبهِ من التوبة، وزيادةَ محبتهِ لعبده؛ فإن للتائبينَ عندهُ محبةً خاصة.

ألا تُريدُ هذه المنزلة؟!

أقبل على ربك، وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَى يفرحُ بتوبة التائبين، كما مثلهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**للهُ أفرحُ بتوبةِ عبدهِ من رجُلٍ نزلَ منزلاً وبه مهلكة، ومعهُ راحتله، عليها طعامهُ وشرابهُ، فوضعَ رأسهُ فنامَ نومة، فاستيقظَ وقد ذهبت راحلتهُ حتى اشتدَ عليه الحرُ والعطش، قال: أرجعُ إلى مكاني، فرجعَ فنامَ نومةً ثم رفعَ رأسهُ فإذا راحلتهُ عنده**».

فانظر فرحته، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أفرحُ من هذا الذي وجدَ راحلته إذا تُبتَ وأقبلتَ عليه.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ولم يجئ هذا الفرحُ في شيءٍ من الطاعات سوى التوبة.

ومعلومٌ أن لهذا الفرحِ تأثيراً عظيماً في حال التائبِ وقلبه، وهو من أسرار تقدير الذنوبِ على العباد؛ فإن العبدَ ينالُ بالتوبةِ درجة المحبوبية فيصيرُ حبيباً للهِ فإنَ اللهَ يُحبُ التوابينَ، ويُحبُ العبدَ المُفتَنَ التواب.

فأسألُ اللهَ الكريم، رَبَّ العرشَ العظيم، أن يُعينا وإياكم جميعًا على غض البصرِ عن الحرام، وأن يسلكَ بنا سبيلَ مرضاته، كما أسألهُ جل وعلا أن يُلهمنا رُشدنا ويقينا شرَ أنفُسنا، واللهُ تعالى أعلم، وصلى اللهُ وسلمَ على نبينا محمد.

❋❋❋